للأستاذ جاويد أحمد غامدي
ترجمة: محمد غطريف شهباز الندوي

قضية الإلحاد

على النقيض من الله الذي يدعو الدين إلى الإيمان به، كان هناك دائمًا أولئك الذين يعتبرون كونَنا هذا هو خالق الإنسان وربه. وهذا ما يسمى الإلحاد. وكان قبل القرن السابع عشر الهيمنة السياسية للدين والفكر الديني قائمةً على مستوى العالم. وقد استمرت هذه الهيمنة لأكثر من ألف عام بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. فهذه هي الفترة المذكورة في الكتب المقدسة الإلهية لذلك. (راجع إلى الكتاب المقدس، رؤيا يوحنا 20: 7-9) وبما أنها كانت نبوءةَ رُسل الله، لذلك فقد تحققت نصًا وروحًا، والآن انتهت هذه الهيمنة في جميع أنحاء العالم. وفي الجو الذي خلقه ذلك الفراغ، أصبح دعاة الإلحاد بارزين بأعداد كبيرة، فهم الآن يعرضون قضيتهم ضد الدين باقتناع كامل.

وإن الاعتراضات التي يتم فيها تقديم هذه القضية مضمونةً بشكل أساسي تتمخض في أربع إيرادات. وسنشرح في السطورالآتية الطريقة التي أجاب بها القرآن عليها:

الاعتراض الأول هو أن مفهوم الله الواحد هو نتيجة التطور الفكري للإنسان. ومن هنا يمكننا أن نرى أنه لا يوجد أي أثر للإله الذي قدمه القرآن، في التاريخ المبكر للإنسان. فأينما نظرت إليه، فإن مظاهر الشرك تتواجد في كل مكان فيه، لكن التوحيد لا يُرى في أي مكان. ومن ثم، فإن الحقيقة هي أن فكرة الإله الواحد

قد ظهرت تدريجيًا في هذا التاريخ، وذلك أيضا برعاية ظروف من يقدمونها فمثلاً ظهرت كمَلك في بعض الأماكن، وكزوج فخور في بعض الأماكن، وكزعيم ديني متعاطف مع الفقراء في بعض الأماكن، وليس هذا فحسب، بل جلب الإنسان معه أيضًا تقاليدَ الأديان المتعددة الآلهة من هذه الرحلة، وكان يطالب بجعلها خاصة لنفسه في جميع الأزمان. فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يقبل هذا الإله الذي صنعه الإنسان بنفسه كخالقه وسيده وإلهه؟

وردًا على هذا الاعتراض، يمكن لنا أن نقول إن أسطورة التطور هذه مجرد أسطورة. ولا يمكن العثور على أي أساس لذلك في عالم الحقائق. إن ما هو معروف حتى الآن عن تاريخ الفكر الديني للإنسان يمكن إرجاعه إلى خمسة آلاف سنة. ولكن ما هو عمر الإنسان على الأرض؟ وفي ضوء التحقيقات التي تم إجراؤها حتى الآن و تم تقديرها فهذا حدث وقع منذ آلاف وآلاف السنين قبله. وبعد ذلك، ما الذي يمكن أن يكذب قول القرآن أن البشر كانوا على دين واحد في البداية؟

وقد تم توجيهه لهم من قبل ربهم نفسه. وتسللت الانحرافات في فكرهم الديني في وقت ما بعد ذلك، مما أدى إلى انشقاقات فتفرقوا. فالشرك شيء وليد من ذلك العصرمن التفرق والتشتت. ومن ثم فمن المؤكد أن رحلة الفكر الديني لم تكن من الشرك إلى التوحيد، بل على عكس منه من التوحيد إلى الشرك. كما قال تعالى:

وَمَا كَانَ النَّاسُ اِلَّا اُمَّةً وَّاحِدَةً فَاخْتَلَفُوْا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيْمَا فِيْهِ يَخْتَلِفُوْنَ. (يونس 10: 19)

وتاريخ الألفي سنة الماضية يشهد أيضًا على هذه الحقيقة. ويعرف العلماء أن هذا التاريخ بدأ بالدعوة إلى التوحيد على يد إثنين من أعظم رُسل الله المسيح ومحمد. ولكن بعد ذلك انظر ما أحدثه خليط الفلسفة والتصوف من انحرافات في تعاليمهما، حتى جعله أتباع المسيح نفسه ابنًا لله وأمه أمَ الرب، وهم يدعونهما ويناجون منهما، وفي أتباع محمد (عليه السلام) هناك من الناس من يرى "أحد" في حجاب أحمد فرق بينهما ميم فقط، فيصرخ في عالم الجذب والكيف:

وہی جو مستوی عرش تھا خدا ہو کر اتر پڑا ہے مدینہ میں مصطفیٰ ہو کر

(إن الذي كان مستويًا على العرش في السماء هو الذي نزل إلى المدينة في صفته

المصطفوية المحمدية.)

وبعد ذلك، لا تحتاج هذه الحقيقة إلى دليل أن الطقوس التعبدية ومراسمها قد تم تعيينها في الأصل من قِبل الله وخالصةً لله، ولكن عندما خلق الشرك آلهته، فتبناها المشركون لآلهتهم أيضًا مع بعض التعديلات.

لذلك، عندما بعث الأنبياء، كان أكبر مطلب للناس في دعوتهم هو أن يا أيها الناس، هذه الطقوس ومراسم العبودية هي خاصة ب الله فقط ويجب أن تظل خاصة به، لأنه وحده هو ربكم، وهو ملك الكون وهو الإله الواحد، لا إله إلا هو.

وأما أن مفهوم الله يبدو غير متجانس في الكتب المقدسة الإلهية هو ببساطة بسبب سوء الفهم. هذه الكتب المقدسة هي من روائع البيان الأدبي. لذلك، ولذا يمكن فصل آياته عن البيانات التاريخية لمؤلفيه في كل مقام ويمكن إظهار كيف حاول الناس فهمها وتفسيرها مع نقص المعرفة والافتقار إلى اللباقة الادبية وعدم الذوق الأدبي، وبالتالي دمروا كل جمالها بتفسيراتهم. ولذا يصدق القول إن قيل عنهم:

من ذهب بشعري إلى أهل المدرسة (الذين لا يستطعون فهمه)

الاعتراض الثاني هو أن الطريقة التي يفهم بها الناس الدين، والفكر الديني الناتج عن ذاك الفهم هي مجموعة من التناقضات. إنه لا يتفق على فكرة الله وتصوره، ولا على صفاته وأفعاله، ولا على طريقة تعامله مع الإنسان، ولا في وصاياه وتعليماته له، ولا على مطالبه من الإنسان، ولا على آرائه في الإنسان والكون. فكأن الأمر كما عبر به شاعر أردي:

لائے ہیں بزم ناز سے یار خبر الگ الگ

(إن اصحاب الحبيب قد جاؤوا بأخبارمتفرقة متضاربة من حفلة حبه)

هل يمكن إذن أن يتوقع من صاحب عقل وشعور أن يفكر أو يؤمن بهذه المجموعة من التناقضات بأي درجة؟

والجواب على هذا الاعتراض هو أن هذه الاختلافات هي نتيجة حتمية للقدرة الممنوحة للإنسان على فهم الحقائق الوجودية واستنباطها منها. فإن العجائب التي أظهرها الإنسان حتى الآن في هذا العالم هي كل من فوائد هذه القدرة. ليس هناك شك في أن المشاكل قد نشأت بسبب استخدامه، ولكن ضع في اعتبارك أن

الشرف الحقيقي للإنسان هو هذه القدرة. الإنسان إنسان من أجلها وبسببها. لقد خلقه خالقه بهذه الطريقة وأعطى له معها الأخبار السارة عن الحياة الأبدية. فكيف يتوقع أنه من أجل خلق الوحدة في فهم إرشاده، سوف يسلب هذه القدرة من الإنسان؟ بالطبع لا، لقد أصدر حكمًا واضحًا بأن "لا إكراه في الدين"، ولذا لم يتعرض أحد للاضطهاد في مسألة الدين ولن يتم ذلك مرة أخرى مستقبليًا.

ومع ذلك، فهذا لا يعني أن الإنسان قد تُرك وهُجر ليعيش في متاهة الاختلافات نتيجةً لذلك. يقول القرآن أن دين الله هو نفسه وأن اسمه كان دائمًا "الإسلام"، ولكن بمجرد ظهور هذا الموقف الاختلافي في فهمه، بدأ الله يرسل أنبياءه إلى كل أمة وبعث أيضًا بكتبه معهم. وتم إنزال هذه الكتب بصفتها ميزانًا وفرقانًا للتمييز بين الحق والباطل، حتى يتمكن الناس من فصل خلافاتهم من خلالها، وبالتالي إقامة العدل في مسألة الحق.فقال تعالى:

كَانَ النَّاسُ اُمَّةً وَّاحِدَةً فَبَعَثَ اللّٰہُ النَّبِيّٖنَ مُبَشِّرِيْنَ وَ مُنْذِرِيْنَ وَاَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتٰبَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اخْتَلَفُوْا فِيْهِ. (البقرة 2: 213)

والقرآن الكريم هو كتاب أخير نهائي من هذه السلسلة، فهو الآن كتاب واحد بين جميع الكتب الإلهامية للعالم، الذي يمكن أن يقال بثقة كاملة إنه موجود فينا في نفس اللغة ونفس الأسلوب ونفس الترتيب الذي نزل فيه بدون أدنى تغير ولا تبدل. وتواتره هذا معجزة في مكانه فإنه كتاب واحد في العالم الذي يمكن للملايين من المسلمين أن يسمعونه من "الحمد" حتى "والناس" من حفظهم محضًا. والتاريخ يشهد أن هذا التسلسل لرواية هذا الكتاب وصيانته هو من جانب رب العالمين بنفسه.

وقد اشارالقرآن نفسه إلى بعض الجوانب من صيانته من حين لأخر ومنها مايلي في ألفاظ الأستاذ الإمام أمين أحسن الإصلاحي:

"أولًا أن الله تعالى قد اهتم اهتمامًا خاصًا لكي لا تتدخل الشياطين في الوحي القرآني. وإن كان هذا اهتمامًا عامًّا في الكون أن لا تستمع الشياطين ما يذكر بالملأ الأعلى ولا تختلط ولكن كان هناك اهتمام خاص لكي لا تخطف الشياطين خطفة في الوحي القرآني، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وثانيًا الملك الذي تم انتخابه لهذا العمل الخطير وصفه القرآن "بذي قوة مُطاع

ثَم أمين قوي عند ذي العرش مكين." فهو قوي لدرجة أن لا تغلبه الأرواح الخبيثة وهو أمير الملائكة لا ينسى شيئًا فماذا يُسلم إلقاءه إليه يلقيه بأمانة كبيرة، ولا يسعه أن يكون هناك فرق كبير أو صغير فيها. وهو ملك مقرب عند الله تعالى وقربته تدل على أنه خير الملائكة وأفضلهم في صلاحياته. وظاهر أن هذا أيضًا حتى لا يكون هناك إمكان ما لتدخل الباطل فيه من جانب منبعه.

وثالثًا البشر الذي تم انتخابه لتحمل هذه الأمانة الكريمة هو خير الخلائق كلهم من كل الاعتبارات. ولم يحمله أن يحفظه ويصونه ويرتبه واحدًا بنفسه بل فرض الله ذلك على نفسه ولذا قال له في سورة القيامة: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه وَقُرْاٰنَه فَاِذَا قَرَاْنٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَه ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه (القيامة 75: 16-19) فتقول الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأبرار كانوا يحفظون القرآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذاكره كل عام في شهر رمضان كي لا يكون هناك سهو ونسيان. وتكون المذاكرة بترتيب رضي ربه الله أن يدون عليه القرآن. وكما تقول الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قام بهذه المذاكرة القرآنية مع جبرئيل الأمين مرتين في رمضان في حياته الأخيرة ثم ضبط وكتابة وتدوين القرآن كله مطابقًا لقراءة العرضة الأخيرة هذه، وقام الخلفاء الراشدون ببعث نقوله إلى مدن وبلدان المملكة الإسلامية في طولها وعرضها. ولم يحظ أي صحيفة من الصحف العتيقة بهذا الاهتمام الخاص حتى وأن صحف التوراة لا أحد يلم عليها بإلمام بأي زمن رتبت صحفها المختلفة وفي أي زمان وبواسطة من.

ورابعًا أن القرآن كلام معجز بسبب فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه، فلا يُرقع بكلام الغير حتى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي نزل عليه وهو أفصح العرب والعجم، لا يدانيه ولا يقابله، فلا إمكان أن يختلط به كلام الغير. فإن التاريخ قد احتفظ في كتب التاريخ والأدب نماذج من مزخرفات مدعي النبوة الكاذبين الذين تجاسروا على القول بكلام مصطنع بجواب القرآن. فقارن بينه وبينها وجدت فرقًا كفرق الجوهر الخالص والزخرفة. وبهذه الطريقة، تم سد طريق التسلل إلى القرآن حتى من الخلف.كماقال: لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.(حٰم السجدة 41: 42)

وخامسًا أن الله قد وعد بحفظ اللغة القرآنية مع صيانة القرآن إلى يوم القيامة. فإنه قد دخلت التحريفات الكثيرة التي لا تحصى في الصحف السماوية الأخرى بسبب اندراس لغاتها الأصلية بطريق الترجمات. ولا يمكن التطرق إليها اليوم، ولكن لغة القرآن الأصلية محفوظة مصونة وتظل مصونة إلى يوم القيامة فلا يتطرق إليه أي باطل بطريق الترجمات والتفاسير. وإذا كانت هناك محاولة خبيثة لإدخال أي باطل فيه فبوسع أهل العلم أن يفرقوا ويميزوا بين الحق والباطل على المعيار الأصيل." (تدبر القرآن 112/7)

الاعتراض الثالث هو أن موقف الله الذي يدعوه الدين إلى الإيمان به قاس للغاية. إنه يقتل حتى الأطفال بكاءً بالأمراض والمعاناة، ويذبح الملايين ومئات الملايين من الحيوانات كل يوم على أيدي البشر كما أنه يمكّن للحيوان أن يمزق حيوانا آخر، فهو لا يمسك بيد أي قاتل وظالم، بل يمنحهم فرصًا للتصدي والعدوان، ويخلق مخلوقات لا حصر لها فقط حتى يتمكن الإنسان من إصلاحها وإخضاعها وتسخيرها لعمله. حتى أنه يلهم البشر لقتل ومحاربة البشر ويعد المكافآت لهم على ذلك. وليس هذا فقط، إن هذا العالم الذي خلقه ليس مثاليًا من جميع النواحي. فهناك زلازل، هناك صواعق، هناك جدب وجفاف وهناك آلام، وليس هذا فقط بل في بعض الأماكن يمكن أيضًا الإخبار عن عيوب. ثم كيف يمكننا أن نصدق أنه ذات رحمن ورحيم وحكيم، عقله غير محدود وقدرته لانهائية ولا محددة؟

وقد أجاب القرآن على هذا الاعتراض بالقول إن العالم الذي يكون فيه ظهور صفات الله في الكمال وصفات المجد والجمال أصليًا لا يزال في الغيب، وقد خلق الإنسان لذلك العالم المستقبلي. وفي الوقت الحاضر، تم بناء الكون العظيم بادي ذي بدء ومليارات المجرات المنتشرة في هذا العالم أمامه من غير ذي ذرع، فهذا كله اعدادات بنائية لذاك العالم وهي مبعثرة في الفضاء اللامحدود كالمعدات البنائية. يقول القرآن إن اليوم ليس بعيدًا عندما يُحَوَّل العالم الموجود إلى أرض وسماء أخرى، ويخرج الكل ويحشرون للوقوف أمام الله وحده. (إبراهيم 14: 48) بعد ذلك يظهر عالم جديد ويكون نطاقه توسع الكون كله. فذلك عالم ظهور دينونة الله ونعمته ورحمته. أما عالمنا هذا الذي نفتح فيه أعين الوعي فهو ديباجة

ذاك العالم وتمهيده. ولم يتم إقامته من أجل الدينونة ولا من أجل ظهور الكمال. وإنما الغرض منه هو فقط أن يكون ابتلاءً واختبارًا. فالكل هنا حتى الجن وأنس في عرصة الاختبار. كما قال تعالى:

الَّذِيْ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ اَيُّكُمْ اَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْغَفُوْرُ.
(الملك 67: 2)

نتيجة لذلك لا يتم هنا فصل الحياة أبدًا عن الموت، والسعادة عن الحزن، والمتعة عن الهم والغم، والرضا عن القلق، والراحة من الألم والنعمة من النقمة في هذا العالم. لقد تم تجميعها معا مثل الزوجين. فهذا عالم من ندمات الماضي ومخاوف المستقبل. ومهما كانت المعرفة والحكمة التي أعطيت للإنسان، فقد أعطيت لفهم هذه الحقيقة. فيقول القرآن: ومن يعطى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا. (البقرة 2: 269)

لأنه بهذا يدرك الإنسان حدود معرفته، وبدلاً من إلقاء اللوم على الله، يحاول فهم مخططه باعتراف عجزه أمامه، ويدعو كل لحظة أن: رَّبِّ زِدْنِيْ عِلْمًا. (طٰهٰ: 114)

فإن أكبر حرمان للمعرفة والفلسفة هو فقدان هذه الحكمة. وهذا الاعتراض على الله ينشأ من هذا الحرمان ويسلم الإنسان إلى الأبد للظلمات التي لم يعد أمامها من نور.

الاعتراض الرابع: أن الإنسان في صغره ربما كان يحتاج إلى الدين، ولكنه الآن قد بلغ رشده ونضج عقله، فقد تعلم من خلال علمه وعلومه القائمة على التجربة والملاحظة والاستقراء والاستنباط مفتاح حل كل مشكلة وتم اكتشافه. كما أنه بدأ يفهم الكون من حوله إلى حد كبير، وقام بإنشاء هياكل وتشكيلات ومؤسسات اجتماعية مبنية على قيم عالية جدًا لتنظيم المجتمع واحتياجات السياسة والاقتصاد، ويمكن تقديرها بالنظر فيها كم سامية ومتفوقة معرفة الإنسان هذه مقارنةً بتلك القوانين والشرائع التي كان يطوق بها عنقه قرونًا عديدة باسم الدين. فمَن إذن على استعداد لقبول هذه الشرائع بأي درجة؟

وردًا على هذا الاعتراض نقول: إن مثل هذه المقارنة لا يمكن إجراؤها إلا من قِبل أشخاص يجهلون الدين تمامًا. لأنه لم يكن هدى الدين لشيء من هذه الأمور قط. ولم ينزل لشرح قوانين العلم للإنسان، ولا لتلبية احتياجاته الطبية، ولا لإنشاء الهياكل

والمؤسسات الاجتماعية لتنظيم المجتمع واحتياجات السياسة والاقتصاد. لذلك، كل ما فعله الإنسان في هذا العالم، كان عليه أن يفعله. لقد خلقه خالقه لهذا الغرض بمنحه قوى وقدرات غير عادية. أما غاية الدين فإنما هو تطهير علم الإنسان وأعماله وحياته الفردية والجماعية وتزكيتها.

والأشياء التي اعتمد لها مصطلح الشريعة في مضمونها هي العبادات، وأحكام طهارة البدن، وطهارة الطعام والشراب، وطهارة الأخلاق وتزكيتها، وكل هذه الأشياء ليست للدنيا على الإطلاق، بل مطلوب للآخرة. لقد قرر الله أن تكون جنته لأولئك الذين يزكون أنفسهم. وبعد هذا فإن الدين لا علاقة له بأي شيء آخر غيره.

ولذلك، إذا أردنا فهم شريعة الله، فسوف تُفهم من حيث غرضها وهدفها هذا لا غير. كما أن الحكم بوجوبها يجب أن يتقرر بهذا المعنى، وتتحدد أيضًا درجتها ومرتبتها في علوم الدنيا وفنونها اعتبارًا بهذه الميزة فقط. لذا أنظر كيف تناول الرب تعالى ذلك حين قال:

هُوَ الَّذِيْ بَعَثَ فِي الْاُمِّيّٖنَ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ اٰيٰتِهٖ وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَاِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِيْ ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ. (الجمعة 62: 2)

الخطاب: الدكتور شهزاد سليم

تدوين الخطاب وتنسيق النص: معظم صفدر

ترجمة من النص الأردي: الأستاذ عثمان فاروق

"ثقافة المورد" مُحسننا

[ويسعدنا أن نقدّم لقرّاء مجلة "الإشراق" صياغة عربية كاملة لكلمة الدكتور شهزاد سليم في هذه المناسبة المشرّفة.]

بسم الله الرحمن الرحيم

قبل كل شيء، أود أن أعبر عن مشاعري بصدق وإخلاص، إذ تغمرني في هذه اللحظة مشاعر حياء شديد، حتى كأنني أذوب خجلا مما سمعته عني في هذا الحفل المبارك. لقد ذكرني ما قيل بكلمة نفيسة للإمام الغزالي رحمه الله، أجدها اليوم أصدق ما يصف حالتي؛ فقد قال: "إن الله تعالى قد ستر عيوبي، وإن فيّ نقائص كثيرة غطاها بفضله، غير أنه بكرمه أظهر خصلة من الخير فبرزت."

وهذا والله هو واقعي؛ فما أكثر ما فيّ من تقصير وعيوب قد حجبها ستر الله، وما أقل ما عندي من محاسن قد أبرزها فضله ومنته. فما كان من خير فهو من الله، وما كان من نقص فمني ومن ضعفي.

الحقيقة أن الإنسان في جوهره هو ما يتجلى في كيانه الأخلاقي. وهذا الوجود الأخلاقي يظهر أول ما يظهر في تعامله مع أهل بيته وأقرب أصدقائه ورفقائه. وزوجتي تشارك الآن في هذا البرنامج عبر الإنترنت، وقد تحدثت عني بكلمات فيها مجاملة ورعاية، بينما الواقع غير ذلك. فهي كثيرا ما تصارحني، ولو لم تفعل لقلت نيابة عنها: إنك إنسان طيب، ولكنك زوج سيئ.

وأنا أقر بوضوح أنني في أدواري المختلفة، كابن وكأخ وكأب، لم أقم بما كان ينبغي أن أقوم به. فما كان يقتضيه القرب من هؤلاء من جهد ورعاية وعطاء لم أؤده كما يجب. وها أنا اليوم، وقد قاربت على الستين، أعترف أنني قصرت في حقوق هذه العلاقات القريبة، وأنني لم أوفها حقها كما ينبغي. وهذا أمر يورثني الأسف، وأسأل الله تعالى أن يتجاوز عن هذا النقص ويغفر لي ما فرطت فيه.

اليوم، ما تسمونه إنجازًا لي، إن كان ثمة إنجاز حقًا، فهو ثمرة لثقافة خاصة هي في جوهرها "ثقافة المورد". ولهذا فإنني أهدي جائزة الإنجاز هذه إلى مؤسستي "المورد" التي ربتني، واحتضنتني، وأتاحت لي الفرصة لأن أعبّر عمّا وُجد في داخلي من قدرات، وأن أُسخّرها في خدمة هذا الدين.

لقد تأسس "المورد" عام ١٩٨٣، ثم بفضل الله تعالى امتد بعد عام ٢٠١٥ إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وكندا وأستراليا وألمانيا. وهو يحمل ثقافة فريدة، أحب أن أسميها "ثقافة المورد". وأود في هذه المناسبة أن أشير إلى بعض ملامحها.

في عام ١٩٨٨ تشرفت بالتعرف إلى أستاذنا الجليل جاويد أحمد غامدي. كنت قبل ذلك قد عقدت العزم أن أكون طالب علم في الدين، غير أنني لم أجد المنبر الذي أبدأ منه؛ فلم يكن ذهابي إلى المدارس الدينية ممكنًا، ولا كان الالتحاق بالجامعة الإسلامية الدولية في إسلام آباد خيارًا متاحًا. وفي تلك الظروف، عندما التقيت الأستاذ غامدي، كان أعظم ما شعرت به هو أن "المورد" مكان يتيح لطالب العلم الديني أن يعبّر عن ذاته وفق طاقاته وشغفه، وأن يخدم الدين في المجال الذي يحب.

فلا تقليد يفرض على أحد، ولا قيود على الفكر؛ بل في التفسير والحديث والفقه والتاريخ والدعوة، لكل أن يسلك المسار الذي يهواه. وقد منحني ذلك ثقة كبيرة، فاخترت القرآن مجالًا خاصًا لي، مع مساهمة في مجالات أخرى، وها أنا منذ خمسة وثلاثين عامًا أواصل هذا الجهد. وما كان ذلك ليتحقق لولا أن المؤسسة يسّرت لي السبل، ووفرت لي الموارد، وتركت لي حرية القرار في اختيار ميدان الخدمة.

ولو نظرتم إلى واقع الثقافة السائدة في باكستان، لوجدتم أن وجود مؤسسة دينية تتيح لطالبها أن يعبّر عن شغفه بحرية، وتعينه على صقل قدراته، وتوفر له المنبر المناسب لأداء رسالته، أمر نادر بل نفيس. أما أنا، فقد رزقني الله هذا المنبر،

فكانت تلك أكبر نعمة في مسيرتي.

ثم إنني لا أنسى أن أستاذنا الغالي غامدي قد غمرني دائمًا بعطفه ورعايته. أذكر أنه خص بعض تلاميذه الكبار بتكليف أن يتفرغوا لتعليمي، فأخذت عنهم العربية وغيرها من العلوم، وكان لذلك أثر بالغ في تقوية عزيمتي وشحذ همتي.

إن حصول الإنسان على الفرصة هو أعظم ما يمكن أن يمنح له، وقد وهبني "المورد" هذه الفرصة. فكثيرًا ما يحمل المرء في داخله الرغبة الصادقة، ولكن لا يجد السبيل ولا المنبر. أما هنا، فقد اجتمع الشغف مع الفرصة، وهذا في نظري هو السمة المميزة لمؤسستنا. فقد أتاح "المورد" لكل واحد من رفقائنا، وبعضهم حاضر هنا، وبعضهم يشارك عبر الإنترنت، أن يتوجه إلى الميدان الذي وجد في نفسه الميل إليه، سواء في البحث أو التعليم أو التدريس أو الكتابة، ففتح له الطريق وأعانه بكل دعم. وهذه نعمة لم تنحصر في شخصي، بل يشهد بها كل من عمل في المؤسسة، وأعمالهم التي ترونها وتتابعونها خير برهان على ذلك. لقد وفقوا أن يعبروا عن شغفهم في المجالات التي أحبوها، وهذه هي "ثقافة الشغف" التي تميز "المورد".

والميزة الثانية التي وجدتها هنا هي غرس الإحساس بأن جوهر الإنسان إنما يكمن في أخلاقه وسمو شخصيته. فإن ضعف الخلق لا يعوّضه أي قدر من العلم الشرعي. لا بد للمرء أن يكون أولًا إنسانًا صالحًا. وهذا ما علمنا إياه أستاذنا مرارًا وتكرارًا، في المجالس العامة والخاصة، مؤكّدًا أن الأصل في الدين أن يثمر حسن الخلق وصفاء القلب. لقد طرق هذا المعنى في نفوسنا حتى استقر، وعلّمنا أن الفضيلة قبل المعرفة، وأن البناء الأخلاقي هو الأساس. وهذا ما أحب أن أطلق عليه اسم "الثقافة الأخلاقية".

في "الثقافة الأخلاقية" علينا أن نبني ذواتنا وننظر في أعماق نفوسنا، لا إلى ما هو خارج عنها. فلا تقل:

Don’t look outside, look within.

وهذا ما أشار إليه سقراط حين قال: اعرف نفسك. فمن هنا يبدأ الإصلاح الحقيقي، إذ لا يمكن للمرء أن يهذب إنسانيته الباطنة إلا بطريق واحد هو النقد الذاتي. فبقدر ما يملك المرء من شجاعة في محاسبة نفسه، بقدر ما يستطيع أن

يصلحها ويهذبها.

وفي هذا المسار، لا غنى عن صلة عميقة بالقرآن الكريم؛ إذ ليس المطلوب أن ننشغل بما يفعله الآخرون أو نتخذ من أخطائهم ذريعة لضعفنا، بل أن نركز على ذواتنا. وقد قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ١٠٥)

وكان أستاذنا يؤكد دائمًا أن النجاح الحق إنما هو في تهذيب الإنسان الداخلي، وأن القرآن هو الذي يتولى هذه المهمة. ولقد سمعت منه قول إقبال في هذا المعنى:

كشتن ابليس كارى مشكل است　　زانكه او گم اندر اعماق دل است
خوشتر آن باشد مسلمانش كنى　　كشتۀ شمشير قرآنش كنى

الترجمة: "إنّ قتل إبليس أمر عسير، لأنّه متوار في أعماق القلب. والأفضل من ذلك أن تسلمه، فتقضي عليه بسيف القرآن."

وهكذا تعلمنا من هذه المدرسة أن العلم إذا لم يقرن بالخلق صار عبئًا لا نورًا. وأن النقد الذاتي، والمراجعة المستمرة للنفس، والارتباط الوثيق بالقرآن هي السبيل الأقوم للارتقاء. فالقرآن هو المنبع، والتقوى والأخلاق هما ميدان السباق: وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فإذا كان ثمة مجال للتفوق والتسابق، فهو مجال التقوى ومجال الأخلاق ومجال تهذيب النفس، وهنا تكون معية الله وتوفيقه.

ولقد تعلمت من أستاذي أن الوعاء إذا كان طيبًا نقيًا صب الله فيه من علمه، أما إذا لم يكن طاهرًا في نظر الله فلن يفيض فيه من أنواره. ولهذا كان لزامًا علينا أن نحافظ على صفاء وجودنا الأخلاقي ونقاء أوعيتنا الباطنة، فهي شرط العلم ونور الفهم. وهذه هي الخصيصة الثانية التي تعلمتها من ثقافة "المورد".

أما الخصيصة الثالثة التي تعلمتها من "ثقافة المورد" فهي ثقافة الحوار. ولو وضعنا هذه القيمة في سياق ما قبل ثلاثين أو أربعين عامًا لبدت شيئًا غريبًا تمامًا. بل إن واقع المؤسسات الدينية في باكستان، إلى اليوم، يقوم في الغالب على "التقليد الأعمى"، حيث لا خيار لطالب العلم إلا أن يردد ما يقوله رئيس المؤسسة من غير نقاش أو مراجعة.

أما في "المورد" فقد وجدنا بيئة مختلفة، إذ كانت الكلمة العليا فيه للدليل، والحوار

فيه قائم على أساس البرهان والاستدلال. فمن هذا المنطلق كنّا نتفق مع أستاذنا أحيانًا، ونخالفه أحيانًا أخرى، مخالفة صريحة ومباشرة، وكل ذلك في إطار من الأدب والاحترام. فـ"ثقافة الحوار" بطبيعتها تثمر النقاش المنطقي، والاختلاف القائم على الحجة.

والحقيقة أن الاتفاق أو الاختلاف أمر عادي، لكن الأهم هو أدب الاختلاف. أن تمنح محاورك الحق في أن يكون صوابًا، وأن تضع نفسك موضع من يمكن أن يكون مخطئًا. بهذه الروح يصبح ممكنًا أن يستمر الحوار حتى مع من لا يؤمنون بالله أصلًا، أو مع من يحملون تصورات باطلة عنه.

فأساس الحوار ليس أن يتخلى الطرف الآخر عن موقفه ليأخذ بموقفك، بل أن تعرض ما توصلت إليه أمامه، وتحترم ما توصل هو إليه، دون أن تجعل الإقناع هدفًا وحيدًا. للأسف الشديد، هذه الروح نادرة في مؤسساتنا الدينية، حيث يطغى التقليد، بينما في "المورد" وجدنا الحوار القائم على الدليل، وتعلمنا بفضله قيمة التسامح، والصبر على المخالف، وأدب الاختلاف.

أما الخصيصة الرابعة فهي ثقافة النقد. فقد كان أستاذنا يؤكد دائمًا: ابدأ بنقد نفسك أولًا، ثم استمع إلى نقد الآخرين بصدر رحب. ولا تنظر أبدًا إلى النقد على أنه أمر هين أو عارض. والنقد نوعان:

الأول هو النقد الذاتي، وهو أساس التطور الحقيقي للإنسان. فإذا أدركت خطأك فعليك أن تبادر إلى إصلاحه من غير تردد أو تبرير.

أما الثاني فهو النقد الآتي من المجتمع، سواء عبر المقالات أو وسائل الإعلام أو أي منابر أخرى. وهذا بدوره نعمة ثمينة، إذ يمنحك فرصة لمراجعة نفسك وتصحيح مسارك. وكان أستاذنا كثيرًا ما يسألنا: هل قرأتم ما كتب في النقد؟ هل اطلعتم على ما نشر حول هذا الموضوع؟ فإذا لم نكن قد اطلعنا شعرنا أن حديثنا معه ناقص، ولذلك كان لزامًا علينا أن نقرأ النقد أولًا، ثم نناقش أستاذنا حوله.

إن هذا النهج عظيم الفائدة؛ لأنه يقي المرء من الغرور والتوهم بأنه بلغ الغاية أو أنه وحده على صواب. بل يجعله يعترف بأن في الدنيا عقولًا كبيرة، وآراء عميقة، وأنه ليس الأول ولن يكون الأخير. والواجب أن يقف المرء موقف الباحث عن الحقيقة وحدها؛ يأخذها من أي طريق جاءت، ويقبلها من أي

إنسان صدرت.

إذا أردت أن أضع عنوانًا جامعًا لكل ما أسميه "ثقافة المورد"، فلن أجد أدق من أن أطلق عليها "ثقافة الحقيقة"، أو رحلة البحث عن الصدق. إنها مسيرة دائمة في طلب الحق، ينتقل فيها المرء من الخير إلى ما هو خير منه، ومن الصواب إلى ما هو أصوب، فيتقبل ما يثبت نفعه، ويعرض عما لا يوافق الحق.

وعند الحديث عن "المورد" لا يسعني إلا أن أذكر شخصية فذة كان لها أثر بالغ في مسيرته. فقد انطلق "المورد" عام ١٩٨٣م واستمر حتى ١٩٨٦م، ثم اعترضته صعوبات مالية كادت توقفه. وفي عام ١٩٨٨م انضممت مع بعض الإخوة إلى العمل فيه، ثم شاء الله أن يبعث من جديد عام ١٩٩١م، بفضل رجل عظيم الفضل هو ألطاف محمود، رحمه الله وغفر له، الذي وافته المنية قبل سنوات بسبب جائحة كورونا.

لا أنسى كلماته الخالدة التي لا تزال تثير في نفسي القشعريرة كلما تذكرتها، إذ قال:

> "لقد عقدت العزم على أن أقسم دخلي إلى ثلاثة أقسام: قسم لـ المورد، وقسم لعملي، وقسم لأسرتي. وجعلت هذا مبدأ ثابتًا، فإذا نزلت بنا أزمة، فالمؤسسة هي التي أعطيها الأولوية في الدعم."

بهذه الروح العالية، وبتلك التضحيات النبيلة، مضت خمسة وعشرون عامًا من مسؤوليتي الإدارية (١٩٩٠ – ٢٠١٥) لم يحدث فيها أن تأخرت الرواتب يومًا واحدًا. وما نشهده اليوم من رسوخ المؤسسة واستمرارها في النمو، إنما هو ثمرة من ثمار عطائه وتفانيه.

كما لا يمكن إغفال ذكر إخوة أعزاء رحلوا عن دنيانا، وكان لهم دور مشهود في مسيرة "المورد"، أنيس مفتي، والدكتور فاروق خان، وراشد فاروقي، وإسحاق ناكي، رحمهم الله جميعًا. لقد أدوا ما يفوق طاقتهم وبذلوا ما يتجاوز وسعهم في سبيل دعم هذه المؤسسة المباركة، شأنهم في ذلك شأن إخوة كرام آخرين أسهموا في مسيرتها بما استطاعوا.

بعد عام ٢٠١٥ دخلت مؤسستنا مرحلة الانتشار العالمي، حيث تأسست فروع لها في خمسة بلدان، وأصبحت الفكرة التي نحملها ذات طابع مؤسسي راسخ.

وهذه نقلة بالغة الأهمية؛ إذ لطالما عانت الأمة الإسلامية من أن كثيرًا من مؤسساتها ارتبطت بأشخاص بعينهم، فإذا رحلوا توقفت، وكأنها لم تكن سوى مشروعات فردية قصيرة العمر. أما نحن فعملنا على ترسيخ البعد المؤسسي، ليبقى العمل قائمًا متجددًا حتى بعد غياب الأفراد.

وفي هذا السياق بذلت جهود مشكورة، ومن ثمارها أن نجد اليوم بيننا الأستاذ مكرم عزيز الذي يحمل رسالة "المورد" في أمريكا بصدق وإخلاص، كما قام إخوانه بحمل هذه الأمانة في كندا، وأستراليا، وبريطانيا، وغيرها من البلدان. وما يميز هذه المسيرة أن جميع القائمين عليها متطوعون، قدموا ما يفوق حدود الواجب، وبذلوا ما استطاعوا من جهد وتضحية.

أيها الأحبة، لقد ذكرت هذه الكلمات لأن بينكم كثيرًا من أصحاب العطاء والإنجاز. ولو كان لي أن أختار شخصًا واحدًا لنيل جائزة الإنجاز مدى الحياة، لطالت القائمة كثيرًا، إذ يستحق هذا الشرف عدد كبير من إخواننا وأخواتنا. ومع ذلك فإن الثناء الحق هو ثناء الله تعالى، وما يفتح لنا من أبواب النجاح في هذه الحياة إنما هو ابتلاء بالنعمة، ينبغي أن يزيدنا تواضعًا وخشوعًا.

وأؤكد في الختام أن النجاح الأصيل ليس في الأوسمة ولا في الجوائز، وإنما هو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله:

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥)

فالفوز الكبير أن ينجينا الله من النار ويدخلنا جنته. وهذا ما نرجو أن يكرمنا الله جميعًا به.

أما عن هذا التكريم الذي نلته، فأقول، سواء نلناه أو لم ننله، فإن غايتنا الدائمة يجب أن تكون أن نكون بشرًا صالحين، وأن نسعى بصدق نحو معراج الإنسانية.

وقد صدقت الشاعرة الإنجليزية Emily Brontë حين قالت:

Twas grief enough to think mankind
All hollow servile insincere,
But worse to trust to my own mind
And find the same corruption there

الترجمة: "كان مؤلمًا بما فيه الكفاية أن أظنّ البشر جميعًا خواءً، متذللين، غير مخلصين. ولكن الأسوأ من ذلك أن ألجأ إلى نفسي لأجد فيها نفس الفساد الكامن."

وكذلك أوجز الشاعر بهادر شاه ظفر هذه الحقيقة بقوله:

نہ تھی حال کی جب ہمیں اپنے خبر رہے دیکھتے اوروں کے عیب و ہنر
پڑی اپنی برائیوں پر جو نظر تو نگاہ میں کوئی برا نہ رہا

الترجمة: "عندما كنّا غافلين عن عيوب أنفسنا، انشغلت أبصارنا بتتبّع نقائص الآخرين ومحاسنهم. غير أنّه ما إن اكتشفنا عيوبنا نحن، حتى تلاشى من أعيننا كلّ قبح في غيرنا."

إن أعظم الإصلاح هو إصلاح النفس، وهذه أسمى رسالة تعلمناها من ثقافة المورد. وأدعوه سبحانه أن يرزقنا حسن الخاتمة، وأن يجعلنا في الآخرة من الفائزين المكرمين.

جزاكم الله خيرا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.